المحاضرة الأولى: النثرالأدبي: ماهيته. مقارنته بالشعر.

I. ماهية اللغة الأدبية وأهم مكوناتها:

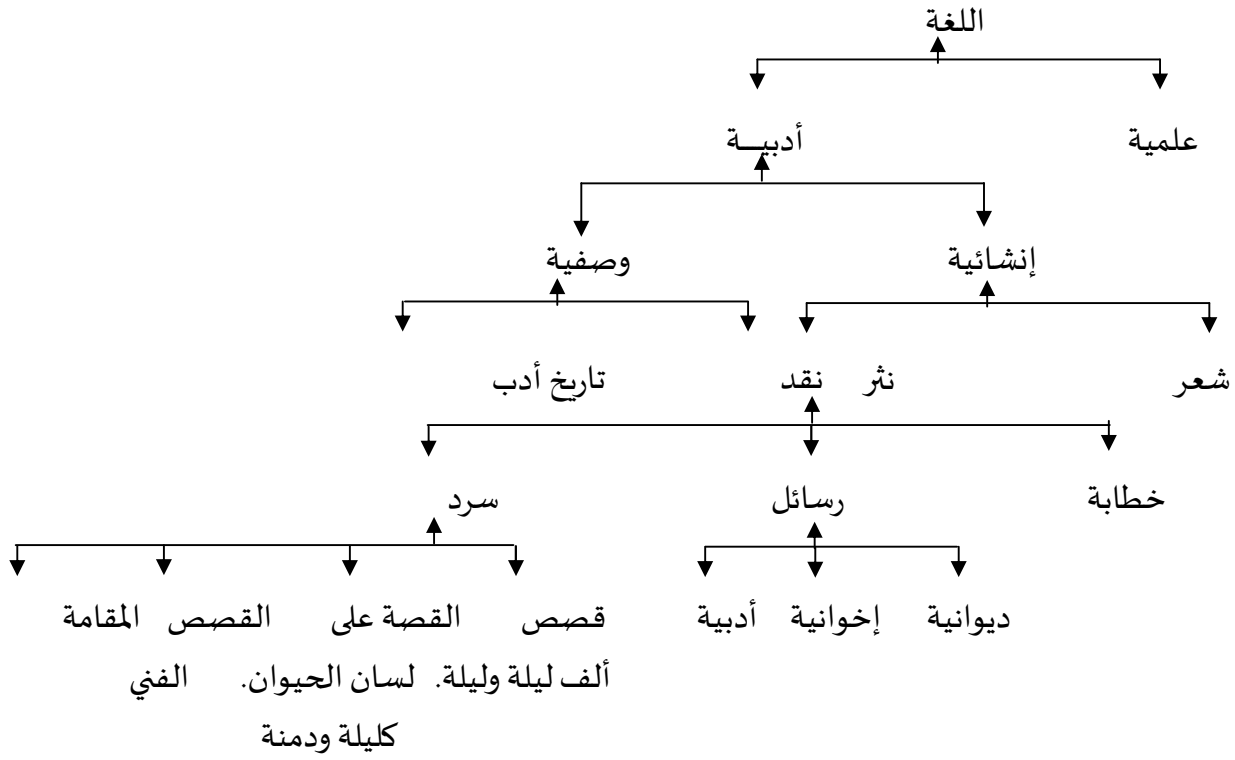

أ. اللغة العلمية: هي لغة التأليف التي تتناول حقائق العلم بأسلوب موضوعي محض لا أثر فيه للخيال والزخرف اللفظي، وهدف هذا الأسلوب هو إجلاء الحقيقة وإبراز الفكرة. والعلاقة فيها بين الدال والمدلول علاقة شفافة.

ب. اللغة الأدبية الإنشائية: ويراد بها ما ينشئه الأديب أول مرة حينما تنفعل نفسه بمنظر جميل، أو حادث أليم أو سار، محاولا ترجمة إحساسه ذاك إلى لغة أدبية تأخذ أشكالا متعددة بحسب الأجناس الأدبية المختلفة [قصيدة شعرية، خاطرة، رسالة، قصة، رواية....]. واللغة الأدبية الإنشائية هي تلك اللغة التي تثير العاطفة بجمالها، وتحرك المشاعر ببلاغتها، وليس الغرض منها إبراز الحقائق وبث الأفكار أو تأييدها، بل الغرض الأصيل لها، هو قوة التأثير في نفس المتلقي، قارئا كان أو مستمعا، لتنفعل نفسه بمثل ما انفعلت به نفس الكاتب. فمتى استطاع الكاتب أو الأديب بعامة أن يثير وجدان المخاطب، ويوقظ مشاعره إلى جانب عقله، فقد بلغ الغاية مما أراد؛ أي الفائدة والتأثير. ولن يبلغ الأديب ذلك إلا بعنصر حيوي زائد عن العنصرين الأولين [الفكرة والعبارة]، ونعني به عنصر الصورة التي تبدو من خلال تشبيهاته الرائقة، واستعاراته البارعة، وكناياته اللطيفة في نسق فني جميل، وقد توضع بعد ذلك في إطار من زخرف القول وموسيقى اللفظ.

ج. اللغة الأدبية الوصفية: يراد بها تعبير السامع أو القارئ عن إحساسه بما أنشأه غيره، فإذا قرأت رسالة أو استمعت إلى قصيدة أو خطبة فملأت نفسك إعجابا بها، أو نقمة عليها، إن لم تكن كذلك، ثم أردت أن تصف هذا الإحساس بإظهار محاسنها أو عيوبها، كان ذلك نقدا، وكذلك إذا أرخت لها وربطتها بزمنها ومكانها ليتضح أمرها في ظل بيئتها وجوّها، ثم حاولت أن تتعرض لها من ناحية تطورها التاريخي والفني، فهذا داخل في تاريخ الأدب.

II. المفهوم اللغوي والاصطلاحي للفظة "نثر":

تحمل كلمة "نثر" في اللغة العربية معان عديدة، فإلى جانب دلالتها المادية الحسية، فإن معناها تطور حتى أصبحت مصطلحا على ذلك الفن القولي الذي يقابل مصطلح الشعر.

اشتقت لفظة : نثر" في المعاجم اللغوية من أصل مادي حسي، وهو النثرة، أي الخيشوم وما والاه. أو الفرجة بين الشاربين حيال وثرة الأنف، أو الدرع الواسعة. والنثر مصدر من نثر، أي فرق. يقول صاحب القاموس المحيط [الفيروز آبادي]:" نَثَرَ الشيءَ يَنْثُرُهُ ويَنْثِرُه نَثْراً ونِثاراً : رَماهُ مُتَفَرِّقاً . كَنَثَّرَهُ فانْتَثَرَ وتَنَثَّرَ وتَناثَرَ . والنُّثَارَةُ بالضم والنَّثْرُ بالتحريك : ما تَناثَرَ منه أو الأُولَى تُخَصُّ بما يَنْتَثِرُ من المائِدَة فَيُؤْكَلُ للثَّوابِ.

تعني لفظة نثر في هذا الطور اللغوي، الشيء المبعثر المتفرق، ومن صفات الشيء المتفرق الامتداد والاتساع، والشيء الذي يبدو بهذه الأوصاف يخيل للناظر إليه أنه كثير العدد، ومنه تأخذ دلالة هذه اللفظة معنى الكثرة. يقال: نثر الولد: أكثره. ثم تأخذ هذه اللفظة بعد ذلك دلالة معنوية: يقال: نثر الكلام: أكثره، تشبيها له بنثر الولد ونثر المائدة. والرجل النثر أو النيثران هو الرجل الكثير الكلام.

تدخل لفظة "نثر" بيئة الثقافة العربية بمعنى الكلام الكثير المتفرق، ثم تقتصر على الكلام الأدبي الذي يسمو على الكلام العادي تعبيرا ومعنى، ثم يستعملها النقاد الأدباء على أنها ذلك الكلام الفني غير المنظوم، الذي يقابل الكلام المنظوم. يقول صاحب البرهان في وجوه البيان [ابن وهب الكاتب]:"واعلم أن سائر العبارة في كلام العرب، إما أن يكون منظوما وإما أن يكون منثورا، والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام". ويقول ابن خلدون في الصدد نفسه:" اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين: فن الشعر المنظوم، وهو الكلام الموزون المقفى [...] وفن النثر وهو الكلام غير الموزون".

النثر إذن، في عرف هؤلاء النقاد، فن قولي غير منظوم، يقابل الشعر ذلك الفن القولي المنظوم، والفرق بين الشعر والنثر في رأيهم عائد إلى هذه الناحية الموسيقية وحسب. والحقيقة أن هذا التحديد لا يستقيم وواقع النثر العربي[1]، فالمتصفح لهذا الفن القولي في أزهى عصور الأدب العربي، في المشرق والمغرب على السواء، يدرك أن به نظما وإيقاعا، كما في الشعر، ولكن الاختلاف بين الإيقاعين يرجع في أساسه إلى المصدر ونوع الإيقاع.

- ليس الوزن إذن، هو المزية الوحيدة للشعر، بل هناك مزايا وصفات أخرى، كالجزالة اللفظية والإيجاز في التعبير، وحسن التخييل، وجمال التصوير، وإحكام الصنعة الفنية، وتكثر هذه الصفات والمزايا في الشعر، وتقل في النثر إلى حد الندرة في كثير من الأحيان.

- ومن أوضح المظاهر الدالة على اختلاف الشعر عن النثر، اتسام كل فن منهما بصياغة فنية تختص به وحده، فمن ناحية الشكل الفني نلاحظ أن للشعر العربي صياغة فريدة تميزه عن غيره، إنه كما يقول ابن خلدون "كلام مفصل قطعا متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير، وتسمى كل قطعة من هذه القطع عندهم بيتا، ويسمى الحرف الأخير الذي تتفق فيه رويا وقافية، وتسمى جملة الكلام إلى آخره قصيدة وكلمة، وينفرد كل بيت منه بإفادته في تراكيبه حتى كأنه وحده كلام مستقل عما قبله وما بعده، وإذا أفرد كان تاما في بابه، في مدح أو تشبيب أو رثاء، فيحرص الشاعر على إعطاء ذلك البيت ما يستقل في إفادته".

- من السمات التي يشترك فيها الشعر والنثر الفني، الوزن والإيقاع اللذان يحدثان في الكلام ضربا من التنغيم. وهذه الخصيصة تبدو بشكل أوضح في الشعر مقارنة بالنثر، لكن لا ننسى أن مفهوم الإيقاع يختلف عن مفهوم الوزن؛ فالمقصود بالإيقاع "وحدة النغمة التي تتكرر على نحو ما في الكلام أو في البيت، أو بمعنى أوضح توالي الحركات والسكنات على نحو

[1]- ينظر نص رسالة ابن العميد المرفقة مع المحاضرة، والنص من أحسن الأمثلة الدالة على النثر الفني العربي في أرقى صوره، وذروة فنيته وجماليته.

منتظم في فقرتين أو أكثر من فقر الكلام أو في أبيات القصيدة. وتمثل التفعيلة في الشعر العربي الإيقاع[1]. أما الوزن فهو عبارة عن مجموعة من الإيقاعات أو التفعيلات التي يتألف منها البيت. وعلى هذا عد البيت الشعري الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية. من أجل هذا نظر النقاد العرب إلى الوزن على أنه دعامة أساسية في الشعر، تفصله عن النثر فصلا نهائيا.

- لا يستطيع الوزن الشعري أن يؤدي وظيفته على أكمل وجه، إلا بحدوث نوع من الانسجام الصوتي بين جميع أجزاء الإيقاع في القصيدة كلها، ومن أهم وسائل الانسجام التي تضبط الإيقاع والتناسب النغمي، القافية التي سماها العرب، بعملها هذا، حافر الشعر.

- لا يخلو النثر، وخاصة الفني منه، من نوع من الوزن والإيقاع، لكن وجود هذه الظاهرة الصوتية فيه تختلف عن وجودها في الشعر كيفا وكما ومصدرا، فإذا كان مبعثها في الشعر هو توالي التفعيلات بما فيها من حركات وسكنات وتتابعها على نحو منتظم في البيت، فإن مبعثها في النثر، المناسبة والموازنة بين الألفاظ في الجمل والعبارات، وهذا التناسب يكون لفظيا مثلما نجده في السجع والازدواج، أو تناسبا معنويا مثلما نجده في الطباق والجناس.[2]

وصفوة القول إنه على الرغم من تعدد مصادر الإيقاع في النثر، فإن ذلك لا يؤدي إلى وحدة عامة للنغمة في النص كله، فالإيقاع في النثر، يمكن أن يوصف بأنه مفكك، وغير مترابط ولا يؤدي إلى وحدة موسيقية واحدة في النص كله مثلما يحدث في إيقاع الشعر.

---

[1]- التفعيلات المكونة للبحور الشعرية العربية: 2. خماسية: فعولن، فاعلن. 6 تساعية: مفاعلتن، فاعلاتن، مستفعلن، مفاعيلن، متفاعلن، مفعولات.

[2]- الازدواج: هو تجانسُ اللفظينِ المجاورينِ، نحو: مَنْ جَدَّ وَجَدَ، ومن لَجَّ وَلِج

- أول أنواع السجع ذلك الذي نجده في الأجزاء المتوازية والمتعادلة لا يزيد أحدهما على الآخر، مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه. مثل قول أعرابي حينما سئل: من بقي من إخوانك؟ قال: كلب نابح، وحمار رامح، وأخ فاضح. وقول رجل لئيم سأله أحدهم الضيافة والكرم: نزلت بواد غير ممطور، وفناء غير معمور، ورجل غير مسرور، فأقم بندم، أو ارتحل بعدم.

- ثاني أنواع السجع أن تكون كل الألفاظ والعبارات مسجوعة، فيصبح الكلام سجعا في سجع، مثل قول القائل" حتى عاد تعريضك تصريحا، وتمريضك تصحيحا.

- الوجه الثالث من أوجه السجع، ويعد أقل أوجهه، هو أن تكون أجزاء الكلام متعادلة، وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج، مثل قول أحد الكتاب:"إذا كنت لا تؤتي من نقص كرم، وكنت لا أوتي من ضعف سبب، فكيف أخاف منك خيبة أمل، أو عدولا عن اغتفار زلل، أو فتورا عن لم شعث، أو قصور عن إصلاح خلل".

- وأما فيما يخص التناسب الحاصل في المعنى، فيمكن أن ينتج عن الطباق أو الجناس. والطباق هو الجمع بين الشيئين على حذو واحد، وسمي طباقا لمساواة أحد اللفظين صاحبه وإن تضادا مثل قوله تعالى:"وأنه هو أضحك وأبكى، وأنه هو أمات وأحيا". وقول رسول الله [ص] للأنصار:"إنكم لتكثرون عند الفزع، وتقلون عند الطمع".